SIATS Journals

The journal of media and social studies for specialized researches (JMSSR)

Journal home page: http://www.siats.co.uk

مجلة الإعلام والعلوم الاجتماعية للأبحاث التخصصية

المجلد 1، العدد 2، تموز 2016م.

e ISSN 0127-7448

البنائية الوظيفية عند الدكتور شاكر مصطفى سليم

(الجبايش أنموذجاً)

فخري صبري العزاوي

جامعة ديالى

العراق

Dr_fakhry_sabry@yahoo.com

1437هـ –2016م

ARTICLE INFO
Article history:
Received 9/3/2016
Received in revised form 20/3/2016
Accepted 12/5/2016
Available online 15/7/2016

ABSTRACT

This paper is synopsized in identifying the functional constructivism relied on by Doctor Shakir Mustapha Saleem and employed it in in his anthropological study of a lage in the south of Iraq (al-Jabayish). This study, which is conducted by Doctor Saleem, is written according to the approach of the anthropological school that is known as the British Functional School of Anthropology.

Doctor Saleem (1919-1985) was the first Iraqi scholar to specialize in Anthropology. Thanks to his efforts, teaching this science was included for the first time in the College of Arts/ University of Baghdad. Al-Jabayish is the dissertation submitted by doctor Saleem to London University in 1955. It was first published (in Arabic) in two parts; the first was published in 1956 and the second in 1957.

In the first section, the researcher dealt with the preliminary references of functional constructivism, the second tackled the principal issues in functional constructivism, while the third is allotted to an identification of Doctor Saleem, the first pioneer of Anthropology in Iraq. The fourth section is dedicated to the study and analysis of the functional constructivism of doctor Saleem (al-Jabayish as a Model).

Finally, the paper comprised a conclusion which included an analytical study of the functional constructivism adopted by Doctor Saleem in his study of al-Jabayish as well as the most significant censures to the style he adopted. It is worth noting that this paper has shed light on the functional constructivism employed by Doctor Saleem in his study of al-Jabayish community.

ملخص البحث

يتلخص هذا البحث في التعريف بالبنائية الوظيفية التي استند اليها الدكتور شاكر مصطفى سليم ووظفها في دراسته الانثروبولوجية لقرية في جنوب العراق (الجبايش)، إن هذه الدراسة التي قام بها الدكتور سليم مكتوبة طبقاً لطريقة المدرسة الانثروبولوجية المعروفة بإسم : The British Functional School Of Anthropology

ويعتبر الدكتور سليم (1919-1985) أول عراقي يتخصص بعلم الانسان (الأنثروبولوجيا) وبفضل جهوده أدخل تدريس هذا العلم لأول مرة في كلية الآداب – جامعة بغداد، والجبايش هي الاطروحة التي قدمها الدكتور سليم الى جامعة لندن عام 1955 وقد نشرها (باللغة العربية) في جزئين نشر الاول عام 1956 والجزء الثاني عام 1957م .

قسمت البحث إلى أربع مباحث، تناول المبحث الأول المرجعيات الأولية للبنائية الوظيفية، وتناول في المبحث الثاني القضايا الاساسية في البنائية الوظيفية، وتناول في المبحث الثالث تعريف بالدكتور سليم رائد الانثروبولوجيا الأول في العراق، أما المبحث الرابع فتناول بالدراسة و التحليل البنائية الوظيفية الدكتور سليم (الجبايش أنموذجاً)، وأخيراً خاتمة البحث ونظمت قراءة تحليلية للبنائية الوظيفية التي انتهجها الدكتور سليم في دراسته للجبايش وأهم الانتقادات الموجهة للأسلوب الذي انتهجهُ الدكتور سليم، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا البحث سلط الضوء على البنائية الوظيفية التي وظفها الدكتور سليم في دراسته لمجتمع الجبايش .

مقدمة

على الرغم من مرور حقبة زمنية طويلة نسبياً على استقلال علم الانسان(الأنثروبولوجيا) على العلوم الاجتماعية الاخرى وخاصة علم الاجتماع بحيث اصبح للأنثروبولوجيا مناهجها وطرقها في البحث العلمي إلا ان هذا العلم (علم الانسان) لم يلق الرعاية و الاهتمام اللازمين، بل إنه يكاد يكون غير معروف إلا من قبل المختصين، إما عامة الناس فهم يجهلون عنه الكثير و خاصة عند التحدث بمصطلحاته ومفاهيمه وقد لمست هذا حتى بين الأشخاص الذين يحملون تخصصات أكاديمية دقيقة، ودائماً ما كنت أواجه بسؤال من قبل زملائي عن معنى الأنثروبولوجيا، ويعتقد البعض أنه قسم من أقسام كليات العلوم يدرس التكوين البايولوجي للإنسان، وهذا في رأي يعود إلى قلة أو ندرة البحوث والدراسات والمؤلفات في هذا التخصيص، وعليه فنحن بحاجة الى المزيد من البحوث والدراسات والمقالات لكي يعرف عامة الناس ما الانثروبولوجيا؟.

لقد تناولت في هذا البحث أول دراسة علمية عراقية في الانثروبولوجيا وهي دراسة الدكتور شاكر مصطفى سليم التي أجراها في منطقة الأهوار جنوب العراق والموسومة (الجبايش)، وهي محاولة متواضعة لتسليط الضوء على المنجز العلمي الرائد في مجال الانثروبولوجيا العراقية، ثم التركيز بشكل خاص على المنهج الذي تبناه الباحث وهو البنائية الوظيفية والذي يفيد في تحقيق الأهداف التي يصبو إليها هذا البحث .

المبحث الأول:المرجعيات الأولية للبنائية الوظيفية

أولاً : البعد التاريخي لنشأة الاتجاهات البنائية الوظيفية

كان العلم الطبيعي وبخاصة علم الحياة أنموذجاً ظل البنائيون الوظيفيون يحاكونه وينسجون على منواله وبدرجات متفاوتة وظلت هذه المحاكاة ملازمة لهم ولاتجاهاتهم نشأة وتطوراً وواقعاً، الأمر الذي وسم جهودهم بالتجديد حيناً وبالتقليد حيناً آخر ولم يَعدُ ما قدموه ضمن الترتيب العام سوى أفكار عامة وردت في كتابات المؤسسون الأوائل لعلم الاجتماع و الانثروبولوجيا.[1]

هذه السمات الاساسية التي يمكن اعتبارها خطاً أو محوراً دارت عليه ومن حولهِ الدعاوى والافتراضات النظرية التي اتى بها الرواد المؤسسون للبنائية الوظيفية وهو امرٌ تفصح عنه بجلاء الخطوات المختلفة التي سار عليها الاوائل في هذا الاتجاه.[2]

وقد أشار علم الحياة ومنذ منتصف القرن التاسع عشر بوضوح الى أن بناء أي كائن حي عضوي عبارة عن ترتيب او تنظيم ثابت من العلاقات القائمة بين الخلايا المختلفة في حياة هذا الكائن ، وعدت هذه المصاحبات او تلك النتائج بمثابة وظيفة لكل عضو من الاعضاء[3].

---

[1]عبد الباسط عبد المعطي: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع ، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة ، 1988م، ص154.

[2]اشيلي مونتاغو: البدائية، ترجمة: محمود عصفور ، الكةيت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرف، العدد 53، ص345.

[3] أحمد أبو زيد: البناء الاجتماعي، مدخل لدراســة المجتمع، ، المفهومات، القاهرة: الدار الوطنية للطباعة والنشــر، 1965م، ج1، 22-25.

ثم جاء وليم روبرنسون سمت W.RSmith ليتلقف هذه الفكرة ولتبدأ أول إشارة لبزوغ الاتجاه البنائي الوظيفي ويتضح هذا من خلال كتاب سميث حول الزواج والقرابة في المجتمع[4]، ويبدو لي أن الفكرة لم تكن واضحة في أطروحات سميث، فقد زادها وضوحاً العالم الاجتماعي البريطاني هربرت سبنسر الذي جاء تصوره حافلاً بالاصطلاحات الوظيفية، حيث لم يكتفِ (سبنسر) باستخدام المماثلة البايولوجية بالمعنى الحرفي للكلمة وإنما استخدم التشابه البايولوجي[5].

ونتيجة لهذه المماثلة فقد نشأت المدرسة العضوية الاجتماعية التي تعتمد بالأساس على مبدأ المماثلة بين مكونات الكائن البايولوجي وبين الأنساق الاجتماعية وبالتالي نشوء الاتجاه البنائي الوظيفي أي أن وظيفة كل نسق أو نظام في المجتمع يشبه الى حد ما الوظائف التي يؤديها العضو في جسم الكائن الحي، وكذلك فإن لكل نسق من الأنساق الاجتماعية وظيفة يؤديها في البناء الاجتماعي وهذا ما قاد فيما بعد إلى القول بأن الفرد في المجتمع له دور في أي نسق اجتماعي وهذا الدور الذي يؤديه إنما هو مرسوم له من قبل النظام الاجتماعي او مجموعة الأنساق الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع .

ثم أخذت المدرسة العضوية الاجتماعية بالتطور شيئاً فشيئاً، فكان من روادها الاوائل (البرت شاف) الذي اثرت افكاره على اثنين من رواد علم الاجتماع الأمريكي هما (البرت سمول) الذي أدخل أفكاراً جديدة الى علم الاجتماع والانثروبولوجيا في أول كتاب له وهو كتاب (سمول) مقدمة في المجتمع.[6]

اما الرائد الثاني فهو (تشارلس كولي) الذي كان حريصاً على القول بأنه ينبغي استخدام التطور البنائي الوظيفي استخداماً مباشراً [7]، إذن يمكن القول بأن كتابه هذا حوى على تفسيرات عضوية للمجتمع من حيث البناء والوظيفة التي يؤديها كل منهما .

---

[4]نيقولا تيماشيف: نظرية علم الاجتماع وتطورها، ترجمة: محمود عودة وآخرون، القاهرة: دار المعارف ، 1972م، ص241.

[5]أحمد أبو زيد: المصدر السابق، ص 131.

[6]عبد الباسط عبد المعطي: مصدر سابق، ص155.

[7]قباري اسماعيل: قضايا علم الاجتماع المعاصر، الاسكندرية: منشأة المعارف ، 1976م، ص369.

كما أن العالم "وليم كراهام سمنر" قد تأثر على ما يبدو بالعالم (هربرت سبنسر) في دراساته، ذلك ان سبنسر يبدو في دراساته وكانه يتبنى المنهج الامريكي وخاصة عند دراسته الطرق الشعبية بوصفها نمطاً اجتماعياً يعبر عن الوظائف التي يؤديها في البناء الاجتماعي بصورة عامة. بعد ذلك اقترح العالم (مالينوفسكي) نظرية وظيفة الثقافة باعتبار ان الوظيفة الاساسية لحاملي الثقافة تتمثل بالايفاء بالحاجات الاساسية لحامليها نتيجة المحاولة والخطأ .

وعلى الرغم من هذا العرض المسهب عن الجذور التاريخية لنشأة المنهج البنائي الوظيفي وما تم عرضه من افكار لبعض العلماء والمختصين في هذا الاتجاه نرى ان الاسس والجذور الاولى لنشوء هذا الاتجاه ترجع الى علماء آخرين كان لهم الفضل الاول في نشوء او ارساء فكرة المنهج البنائي الوظيفي وعليه فأننا نعتقد ان من الصواب ان نعود الى الحقب التاريخية الاولى والى الاصوات والدعوات التي جاءت عبر كتابات ومؤلفات وطروحات بعض المختصين ليس في حقل علم الانسان فحسب وانما في حقل المعرفة الاجتماعية وخاصة علم الاجتماع .

وعلى هذا الاساس يمكن القول ان اول دراسة منسقة حول منطق الاتجاه البنائي الوظيفي هي تلك التي قدمها عالم الاجتماع الفرنسي اميل دوركهايم من خلال مؤلفيه (قواعد المنهج) و(تقسيم العمل الاجتماعي)، اذ ميز الكتاب الاول بين كلٍ من التفسير العلمي او السببي وبين التفسير الوظيفي[8]وهكذا ومع تظافر كل الجهود التي بذلها الرواد الاوائل تبلور هذا الاتجاه بصيغته النظرية ليأخذ طابعاً تطورياً عبر السنوات التي مرت بها هذه المراحل لصياغة النظرية السسيولوجية والانثروبولوجية ثم توجه هذا الاتجاه نحو العالمية ليشمل مختلف المدارس في السسيولوجيا والانثروبولوجيا، وظهرت مقالات في هذا الاتجاه في كل من المانيا وامريكا وانجلترا، كما نشرت العديد من المقالات والكتب مثل المقالات التي قدمها (لبيولد فون) في الفترة بين عام 1918 وعام 1924 .

وخلاصة القول فأن البنائية الوظيفية قد تأثرت بشكل واضح وكبير من خلال عشرينات وثلاثينات القرن الماضي بجهود اثنين من الانثروبولوجين هما (راد كلف براون) و (مالينوفسكي) فالعالم براون تعلم في (كمبرج) وسار على طريقة (اميل دوركهايم) ومدرسته، واستخدام المماثلة البايولوجية لكي يوضح وظيفة كل عنصر من عناصر البناء الاجتماعي وتطوره.

[8]عبد الباسط عبد المعطي: المصدر السابق، ص156.

وجدير بالذكر ان (مالينوفسكي) وسم نموذجه الوظيفي بخاصية تميزه عن الاخرون من حيث المنهج والبناء، كما انه يشير في الوقت ذاته الى النزعة (الدوركايمية) في هذا الاتجاه[9]، كما ان هناك اتجاهاً ينحى منحىً ربما يختلف جزئياً في مسألة نشأة هذا الاتجاه اي (البنائي الوظيفي)، فالاستنتاج الذي خرجت به من خلال ما تيسر من المصادر العلمية ان هناك اختلافاً واضحاً في مسألة الرواد الاوائل في هذا الاتجاه وتحديد او حصر اسماء العلماء والمختصين الذين وضعوا اسس هذا المنهج وهذه كما نعتقدٍ مسألة طبيعية جداً لان الفكر الانساني ليس حكراً على عالم واحد او مجموعة علماء بل انه وكما هو معروف وليد التراكمات المعرفية الفكرية الكثيرة والمتعاقبة للفكر الانساني، وعليه لا يمكن ان نجزم هنا بمسلمة علمية قاطعة حول نشأة المنهج البنائي الوظيفي.

وعليه فقد كان (فرانس بواس) اول عالم انثروبولوجي سبق الاخرين في استخدام المدخل الوظيفي، فقد كتب في عام 1887يقول ان فن اي شعب او طريقته المتميزة لايمكن ان تفهم الا بدراسة ما يصدر عنه ككل، ولكن الوظيفة نمت بعد ذلك في الانثروبولوجيا لتصبح اتجاهاً ثابتاً ومحدداً يعارض المدرسة الانتشارية[10].

ان الفكرة الاساسية التي تكونت لديّ حول الاتجاه البنائي الوظيفي في اعمال الرواد في هذا المنهج تبدأ من اوائل المفكرين في مجال السسيولوجيا بدأً من(اوكست كونت) و (هربرت سبنسر) و (اميل دوركهايم) وغيرهم الكثير لان هؤلاء المفكرين والمنظرين ومن خلال افكارهم وكتاباتهم حاولوا ان يتصوروا المجتمع من حيث انه بناء يتكون من مجموعة انساق تشكل البناء الاجتماعي او بصورة ادق واوضح ان المجتمع هو بناء وهذا البناء مكون من اجزاء وهذه الاجزاء لها وظائف تؤديها في هذا البناء.

وخلاصة القول ان البنائية الوظيفية في علم الاجتماع والانثروبولوجيا تأثرت بالدراسات البيولوجية المفرولوجية حول التكوين التشريحي للكائن الحي.

---

[9]عبد الباسط عبد المعطي: المصدر السابق، ص156.

[10]محمد عاطف غيث: علم الاجتماع، الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية، 1990م، ص77 .

ومما يمكن استخلاصه حول البنائية الوظيفية ما يأتي :

1- لم يتم استخدام هذا المفهوم من قبل العلماء بمعنى واحد وانما بصيغ متعددة وتصورات متنوعة.

2- لم يطرأ على المفهوم أي تغير او تطور جوهري فمنذ محاضرة (راد كلف براون) احد رواد هذا الاتجاه التي القاها عام 1940[11]والموسومة في البناء الاجتماعي والمفهوم يسير على وفق المعطيات ذاتها والمبادئ نفسها.

ثانياً :- التعريف بالاتجاهات البنائية الوظيفية

ترجع تسمية هذا الاتجاه الى استخدامها لمفهوم البناء Structure والوظيفة Function في فهم وتحليل المجتمع من خلال مقارنته وتشبهه بالكائن العضوي او الجسم الحي[12].إن هذين المفهومين يعدان العمود الفقري لهذا الاتجاه وسوف نعرض هنا بشيء من التفصيل المعنى الاساس لهذين المفهومين:

أ- يقصد بالبناء الاجتماعي مجموعة العلاقات الاجتماعية البنائية والتي تتكامل وتتسق من خلال الادوار الاجتماعية، فثمة مجموعة اجزاء مرتبة منسقة تدخل في تشكيل الكل الاجتماعي وتمتد بالاشخاص والزمر وما ينتج عنها من علاقات وفقاً لأدوارها الاجتماعية التي يرسمها لها الكل وهو البناء الاجتماعي[13].

ب- ويقصد بالوظيفة الاجتماعية Social Function ذلك الدور الذي يسهم به الجزء في الكلوهذا ما متفق عليه بين انصار هذا الاتجاه، اما في الجوانب الاخرى فأنه هناك عدم وضوح في هذا المفهوم (ففلفريد باريتو) (F.Pareto) احد رواد هذا الاتجاه يستخدم الوظيفة بمعنى المنفعة لاتساق النسق الاجتماعي والمحافظة عليه.

---

[11]قيس النوري: مدارس الانثروبولوجيا ، بغداد: بيت الحكمة، 1991م.

[12]أحمد أبو زيد: مصدر سابق، ص 38.

[13]قيس النوري: المصدر السابق، ص357.

ج- ثم جاء (وليم روبرتسون سمث) ليتلقف هذه الفكرة ولتبدأ اولى اشارات بزوغ البنائية الوظيفية ويتضح هذا من كتاب (سمث) حول الزواج و القرابة سنة 1885[14]، وقد وضح هذه الفكرة (هربرت سبنسر) عالم الاجتماع البريطاني، حيث استخدام أسس ومفهومات علم الحياة وطبقها على المجتمع الانساني تطبيقاً شبه كامل.

لقد كانت البنائية الوظيفية طريقاً جديداً اعان الانثروبولوجين على القيام ببحوثهم الميدانية, حيث تأثرت البنائية الوظيفية بالبحوث والنشاطات البايولوجية التي اثارتها نظرية (جارلس دارون)، ونظراً لكثرة البحوث الحيوية فقد اتسمت طرق البحث في العلوم الحياتية بالدقة ولذلك اصبحت مناهج البحث الحيوية قدوة تقتدي بها العلوم الاخرى كعلم الاجتماع والانثروبولوجيا وعلم النفس والرياضيات.[15]

لذلك بدأت العلوم الانسانية تأخذ من هذه العلوم (العلوم الطبيعية) قوانينها وتنظر الى ظواهرها كما تنظر العلوم الحيوية الى ظواهرها، فالعلوم الحيوية تنظر الى الكائن الحي على انه كيان يتكون من اعضاء مترابطة وان لكل عضو وظيفته، ولذلك أخذ الانثروبولوجين ينظرون الى المجتمع على انه كيان مترابط يتكون من نظم مترابطة ولكل نظام وظيفته، الامر الذي خلص الانثروبولوجين من الطريقة التاريخية التطورية ودفعهم الى القيام بالعمل الميداني التشريحي للمجتمع مما جعلهم يقفون على الحقائق الاجتماعية[16]، وبهذا اتجه الانثروبولوجين اتجاهاً صائباً وسليماً في دراساتهم عن طريق اتباع المنهج البنيوي الوظيفي.

---

[14]عبد الباسط عبد المعطي: مصدر سابق، ص 152-154.

[15]خالد الجابري: محاضرات القاها على طلبة الدكتوراه، كلية الاداب، جامعة بغداد، قسم الاجتماع ، 2000م.

[16]محمد حسن غامري: المناهج الانثروبولوجيا، الاسكندرية: المركز العربي للنشر، 1982م، ص 33.

المبحث الثاني:القضايا الاساسية في البنائية الوظيفية

ترى البنائية الوظيفية ان المجتمع يتكون من انساق محددة ومنظمة ويتألف هذا النسق من مجموعة المتغيرات المترابطة بنائياً ووظيفياً وهذا كله يعتمد على الانسان الذي يعد الاساس في هذا المنهج، فالانسان هو العنصر الاساس الذي يتكون منه النسق الاجتماعي ومجموعة هذه الانساق لها دور او وظيفة تؤديها في البناء الاجتماعي لكل مجتمع، حيث ان كل مجتمع يميل الى الوحدة والتكامل العضوي في القيم والافكار والمعتقدات وفي عمليات التنافس والصراع وغيرها من العمليات الاجتماعية الاخرى، ومن خلال هذه العمليات يستطيع المجتمع ان ينجز الوظائف المطلوبة أكانت مادية أم معنوية ويعتمد هذا بلا شك على مبدأ مهم هو مبدأ تقسيم العمل الاجتماعي، او عن طريق الادوار التي يؤديها الافراد داخل النسق وبما يؤدي الى حصول عملية التوازن في الوظائف والادوار.

ويرى العالم (اميل دوركهايم) أن الأنساق الاجتماعية مثل الدين والاقتصاد والسياسة والقانون هي أنساق إجتماعية في جوهرها تمثل القيم والمثل وتشكل الضمير الجمعي،[17] ويصف عدد كبير من الانثروبولوجين نوع الدراسة التي يقومون بها لأي مجتمع بأنها وظيفة بنائية والنظرية التي يهتدون بها ويسيرون عليها في هذه الدراسات يطلقون عليها (المدرسة الوظيفية حيث أعطت كلمة وظيفة معاني عديدة ومختلفة).

وفي ضوء هذا الفهم يمكن توظيف هذا المصطلح في الحياة اليومية للفرد بوصفه عضواً في احد الانساق الاجتماعية ويؤدي وظيفة تتناسب مع الدور المسند اليه لكونه عضواً في مؤسسة اجتماعية وبالتالي هو جزء من البناء الاجتماعي.

ان كلمة وظيفة تستعمل في معنى رياضي فقولك - س – هو دلالة – ص– يعني ان العلاقة بين – س – و – ص – مستمرة بحيث ان تغير – ص – يعني تغير – س – وقد استعمل الانثروبولوجين الاجتماعيين في بعض الحالات هذا المجاز.

وعليه نجد ان المنهج البنائي الوظيفي قد احتل مكاناً بارزاً في النظرية السسيولوجية والانثروبولوجية واستند اليها الكثير من الباحثين الذي قاموا بدراسات ميدانية في المجتمعات البدائية والتقليدية معتمدين في تفسيراتهم واستنتاجاتهم

[17]احسان محمد الحسن: رواد الفكر الاجتماعي، جامعة بغداد، 1991م،ص234.

للظواهر الاجتماعية على وفق المنهج البنائي الوظيفي حتى صار هناك اعتقاد بأن الدراسات الاجتماعية اخذت تتجه اتجاهاً بنائياً وظيفياً .

اذن يمكن القول ان الاتجاه البنائي الوظيفي اصبح يمثل مدرسة، ومن العلماء الذين ينادون بهذا المنهج هو العالم (مالينوفسكي) الذي طور الى اقصى حد هذا المنهج لدرجة انه اطلق على نفسه وعلى تلاميذه (وهذه نكتة) اسم (المدرسة البنائية الوظيفية)[18]

ويبدو ان (مالينوفسكي) كان يسعى الى ايجاد علاقة ترابط بين التنظيمات او المؤسسات الاجتماعية وبين الادوار التي تؤديها كل مؤسسة على اعتبار ان البناء الاجتماعي يعتمد على المؤسسات ويرى (كالن) [19].

إن الأفكار المتميزة التي تعبر عن الوظيفة هي الانتقال الاجتماعي والانماط والدينامية والعملية والنمو والامتداد والانبثاق، ويستمر (كالن) في شرحه للوظيفة فيقول كانت الوظيفة تعالج قديماً على انها (متغير معتمد) او خاصية لبناء ثابت ولكن الوظيفة اليوم ينظر اليها بوصفها (المتغير المستقل) ، ولتطوير ذلك نقول ان الانسان له رجلين (ساقين) وهذا بناء وهو لذلك يسير (وظيفة) اما الان فيقال ان الانسان يسير (وظيفة) وقد ادى هذا النوع من النشاط ان له رجلين (بناء).

وهكذا نرى ان الوظيفة والبناء قد اثرت بشكل مباشر على كل نظم الفكر الاجتماعي من خلال ادخال (البنائية الوظيفية) في الدراسات الميدانية التي اجريت في مجال التنظير للفكر السوسيوانثروبولوجي قبل ذلك.

[18]لوسي مير: مقدمة في الانثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة شاكر مصطفى سليم، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة ص 43، 44.

[19]عاطف غيث: مصدر سابق، ص 57.

المبحث الثالث:شاكر مصطفى سليم

رائد الانثروبولوجيا الأول في العراق

الدكتور شاكر مصطفى سليم 1919– 1985اول عراقي يختص بعلم الانسان(الانثروبولوجيا) وبفضل جهوده أُدخل تدريس هذا العلم لاول مرة في كلية الاداب – جامعة بغداد – حيث اصبح مادة ثابتة من مواد الدراسة في قسم الاجتماع، والدكتور سليم من الشخصيات العراقية الاكاديمية التي لعبت دوراً بارزاً في الحياة الاجتماعية في العقدين الخامس والسادس من القرن العشرين.

مارس الدكتور سليم النقد الاجتماعي لاحداث سياسية متصارعة في جريدة (الحرية البغدادية) اثارت انتباه الجماعات المتصارعة وكان نقده احادي الجانب، اي انه انطلق من الجانب القومي ضد الشيوعي والمسؤولين آبان حكم عبد الكريم قاسم، فتعرض لمشاكل سياسية ومهنية ادت به الى السجن والابعاد والنقل من كلية الى اخرى والفصل من الوظيفة.

خلال ربع قرن من حياته الاكاديمية قدم الدكتور سليم عطاءً في اختصاصه في الانثروبولوجيا، كما قدم جهداً معنوياً وتبعوياً للشعب بشكل متميز ومثير .

ويمكن ان نُقسم عطاء الدكتور سليم في الآتي[20]

1- دراسة ميدانية أكاديمية (الجبايش).
2- مقالات نقدية (جماهيرية قومية).
3- كتابات نقلية اكاديمية (تراجم وتأليف).

[20]معن عمر: رواد علم الاجتماع في العراق، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1990م، ص141، 142.

المبحث الرابع:البنائية الوظيفية عند شاكر سليم

(الجبايش انموذجاً)

الجبايش دراسة انثروبولوجية لقرية في أهوار العراق، وهي الأطروحة التي قدمها الدكتور سليم إلى جامعة لندن و نال بها درجة الدكتوراه عام 1955 و قد نشر الدكتور سليم هذه الاطروحة (باللغة العربية) في جزئين الاول نشر عام 1956، والجزء الثاني عام 1957 واحتوت هذه الدراسة على اربعة اقسام وستة عشر فصلاً إن هذه الدراسة التي قام بها الدكتور سليم هي دراسة مكتوبة طبقاً لطريقة المدرسة الانثروبولوجية المعروفة بإسم The British Functional School Of Anthropology

اتبع الدكتور سليم في دراسته للجبايش منهج الملاحظة بالمشاركة، ذلك ان المدرسة التي ينتمي اليها وهي المدرسة البريطانية تفرض على الباحث الاقامة في المجتمع المدروس مدة لاتقل عن سنة كاملة لذلك فأن سليم وضع دراسته هذه على اساس إمة دراسة Field Work في القرية من الثاني لشهر كانون الثاني عام 1953 حتى نهاية شهر ايلول من السنة نفسها، اضافة الى ذلك فقد اعتمد الدكتور سليم في دراسته على المخبرين في جمع المعلومات، ولن اتحدث عن الصعوبات والمشكلات التي واجهت الباحث سليم اثناء اقامته في الجبايش لانه كتبها في الاطروحة وهي معاناة صعبة للغاية .

اعتمدت دراسة سليم للجبايش على الدراسة الوصفية التحليلية لنواحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في القرية، ويقسم سليم سكان الاهوار على اساس اساليب حياتهم الوظيفية، والاغلبية العظمى هم من الزراع وجامعوا القصب وحاكة الحصر.[21]

وهنا يظهر لنا بوضوح اثر البيئة الطبيعية في المهن التي يزاولها الناس حيث يعتمد النسق الاقتصادي بشكل مباشر على النسق الايكولوجي وهذا بدروه اثر في البناء الاجتماعي وانساقه وفي الوظيفة الاجتماعية التي تلعبها باقي الانساق وكذلك الادوار التي يؤديها الافراد داخل النسق، وهذا في رأينا قد اثر بشكل مباشر على النسق السياسي من حيث التقسيم الاجتماعي لسكان هذه المنطقة .

[21]شاكر مصطفى سليم: الجبايش، ج1، بغداد: مطبعة الرابطة ، 1956م، ص29.

ان الترابط والتكامل بين الانساق التي درسها سليم هو ترابط بنائي وظيفي لانه لايمكن فهم او تحليل اي من الانساق بمعزل عن فهم الانساق الاخرى، لأنها تكون كلاً مترابطاً لا يمكن الفصل بينهما وهذا واضح بشكل مباشر في تأثير البيئة الطبيعية في منطقة الاهوار حيث اثرت بشكل واضح في نوعية وطبيعة المهن التي يزاولها الافراد فأغلب سكان هذه القرية يمارسون صناعة الحصر بسبب توفر القصب والبردى وكذلك في بناء الاكواخ والمضايف التي يسكنها الناس في القرية، والامر نفسه ينطبق على طبقة المعدان الذين يعتمدون في حياتهم الاقتصادية على تربية الجاموس، والمعروف ان الجاموس يعيش في المناطق التي تتوافر فيها المياه لان الجاموس يعوم دائماً في الماء كما ان وجود القصب والبردي يعد غذاءً اساسياً لهذه الماشية ، فسكان الجبايش يطلقون تسمية المعدان[22] على العوائل التي تربي الجاموس الذي يستفاد منه ومن منتجاته . إن الدور والوظيفة التي يلعبها الفرد في نظام القرابة هي وظيفة سياسية حيث ان الفترة التي درس فيها سليم مجتمع الجبايش كانت الامور السياسية تقوم بها العشيرة بسبب ضعف السلطة الادارية والحكومية على الرغم من وجود مركز للشرطة[23] والعشيرة في مجتمع الجبايش هي المسؤولة عن حماية الفرد وممتلكاته عن طريق حل المنازعات التي تحصل وهي كثيرة بواسطة(الفصل) وهو مبلغ من المال يدفع كتعويض للفرد الذي يتعرض هو او ممتلكاته للأذى .

وهنا نرى ان وظيفة النظام العشائري هي وظيفة اجتماعية، وهذا ما يبرر لنا وجود (اعراف) عشائرية خاصة تحدد مقدار (الفصل) كان سكان الجبايش معزولين عن العالم الخارجي حتى بدء الحرب العالمية الاولى (1914- 1918) وقبلها في عهد السيطرة العثمانية حيث لم تكن الحكومة المركزية متواجدة[24]، فكانت العشيرة لها وظيفة حفظ الامن والنظام وحل المنازعات بين الافراد والمجموعات .

إن من الامور المسلم بها ان العائلة هي اهم واصغر مؤسسة اجتماعية لها وظيفة او مجموعة وظائف اجتماعية، فالعائلة في الجبايش عائلة ممتدة، لذلك فهي اضافة الى انها احدى مكونات البناء الاجتماعي، فإن لها وظائف عديدة ومتنوعة، فهي التي تسهم بشكل مباشر في اداء الوظيفة الاقتصادية واشباع حاجات الافراد عن طريق ممارسة الزراعة

---

[22] المصدر نفسه، ص31.

[23] المصدر السابق، ص 33.

[24] المصدر السابق، ص 40.

وحياكة الحصر – وفي بعض الاحوال وخاصة عوائل المعدان – في تربية الجاموس حيث ان اغلب العوائل في الجبايش تمتلك الجاموس ولكن ليس بأمكانها بيع منتجات الالبان بسبب التقاليد والعادات الاجتماعية التي لا تسمح لهذه العوائل بيع هذه المنتجات (البياض) وهو مصطلح محلي يطلق على الحليب ومشتقاته.[25]

إن السلطة في العائلة في مجتمع الجبايش هي سلطة ابوية وهذا ناتج عن اسباب اجتماعية حيث ان نظام القرابة والزواج قائم على اساس النسب الأبوي[26] (سليم ، 1956 : 76)، وتتجلى الوظيفة في البناء الاجتماعي للعائلة في الجبايش بشكل واضح بموجب نظام تقسيم العمل وخاصة في العوائل التي تعمل في الزراعة بعمل افراد العائلة في الحقول للمشاركة في زراعة الارض.[27] ولأن السلطة أبوية كما ذكرنا لذلك ترى ان الاب يحاول ان يقلل من اهمية افراد اسرته ، وهذا واضح من عدم تسمية الزوجة والابناء باسمائهم بل الاستعاضة بنعوت محلية خاصة، حيث تنعت الزوجة بنعوت تدل على الاحتقار والاستصغار ، فستعمل الفاظ مثل (ولج) و (ولك) و (خايبة) و (خايب). [28]

كما يسود نظام تعدد الزوجات في الجبايش حيث يسمح للرجل بالزواج من اربع زوجات في وقت واحد وهذا هو العدد المسموح به في الشريعة الاسلامية .

ويلعب المضيف دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية والعشائرية ففي مُلكه وبنائه يتقرر المركز الاجتماعي لصاحبه والدور الذي، يلعبه المضيف في الحياة الاجتماعية والسياسية للعشيرة بالغ الاهمية، وينظر اهل الجبايش لتقاليد المضيف وآدابه نظرة تقديس واحترام وهو المكان الذي تلتقي فيه الشرائح الاجتماعية وتتصل ببعضها طبقاً لنظام وعرف دقيقين.[29]

---

[25] شاكر مصطفى سليم: المصدر السابق، ص53.

[26] المصدر نفسه، ص 76.

[27] المصدر نفسه، ص 81.

[28] المصدر السابق، ص 173.

[29] المصدر السابق، ص 96.

إذن للمضيف وظيفة اجتماعية يؤديها، ففيه يلتقي الرجال على اختلاف انتمائهم وهذا بدوره يؤدي الى التقاء المجاميع التي تكون مؤسسات البناء الاجتماعي في مجتمع الجبايش وهذا يؤدي بدوره الى التقارب بين افراد المجتمع ويقلص الفجوة بين الشرائح الاجتماعية.

ونظام المشيخة هو الذي يسير الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجبايش فبأمكان الشيخ ان يوجه عقوبة الى الشخص الذي يخرج عن الاعراف والتقاليد وهذه العقوبة تختلف بحسب العمل الذي يقوم به الفرد، ففي بعض الاحيان تصل العقوبة الى حرق كوخه الذي يسكنه وافراد عائلته واجباره على الرحيل من المنطقة مصطحباً معه افراد عائلته.[30] وهنا يظهر وبشكل واضح الوظيفة الاجتماعية لنظام العشائر الذي يحل محل السلطة الادارية والسياسية للبناء الاجتماعي لمجتمع الجبايش وسلطة الحكومة في الجبايش ضعيفة، ففي حادثة وقعت في سوق القرية أُهين احد رجال الشرطة وصفع على وجهه اثناء القيام بواجبه الرسمي من قبل صاحب حانوت، وفي هذه الحالة من المتوقع ان تتخذ الشرطة اجراءات صارمة ضد الذين اهانوا الشرطي ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل حيث ان معاون الشرطة استلم مبلغاً من المال (كحشم) رداً لاعتبار الحكومة المهدور وشرفها الذي أُهين[31]من هذه الحادثة نستنتج ان البناء والتنظيم العشائري يؤدي وظيفة اجتماعية في عملية الضبط تفوق ما تقوم به الدولة حيث يغلب العرف على القانون ، وللعرف وظائف يؤديها في البناء الاجتماعي لمجتمع الجبايش وفي هذه المسألة يركز الدكتور سليم على الوظيفة والبناء في مجتمع الجبايش الذي درسه.

وفي مجال المؤسسة التربوية التي تمثلها المدرسة فأن سكان الجبايش يعتقدون بأن المعلمين غير مؤهلين لتربية وتعليم اولادهم فأهل الجبايش يعتقدون بأن المعلمين يفسدون اولادهم فهم يرددون بمرارة العبارة التالية (هذولة المعلمين مايعلمون ولدنة هذولة يفسدوهم، كون بيهم خير جان علموا ارواحهم). [32]، وهذه النظرة تعود الى ان المعلمين في القرية كانوا يمارسون لعب القمار مع بعض الموظفين الحكوميين وان سلوكهم هذا غير مرغوب به، لذلك نجد المؤسسة التربوية فاشلة في اداء وظيفتها .

---

[30]شاكر مصطفى سليم: المصدر السابق، ص205.

[31] المصدر نفسه، ص 249.

[32]شاكر مصطفى سليم: الجبايش، ج2، بغداد: مطبعة الرابطة، 1957م، ص451.

لقد كان في الجبايش قبل عام 1951 ترابط وثيق بين المكونات الاجتماعية والاقتصادية فكانت الطبقات العليا تتمتع بأرفع الامتيازات في حين ان الطبقات الدنيا لم تكن لها اية امتيازات، ولكن دخول الادارة الاجنبية وما تنتج عنها من اتصال بالعالم الخارجي ادى الى احلال نظام السوق محل الاقتصاد التقليدي، كما ان الغاء نظام المشيخة ادى الى تحطم الكيان الاجتماعي القديم.[33]

من هذا نستنتج أن البناء الاجتماعي قد تحول من نظام سيادة الطبقات والوظائف التي تقوم بها الى سيادة دور الافراد رغم بقاء بعض الرواسب الطبقية القائمة على اسس متعددة منها النسب والمهنة والوظيفة او الدور الاجتماعي للفرد الذي يؤديه بصفته جزءاً من البناء الاجتماعي.

وعلى الرغم من ان الفرد في الرأي العام في الجبايش يربط بصورة عامة بين الاعتبار والنفوذ، ويرى في الثاني اساساً يقوم عليه الاول، فأن هناك حالات يحصل فيها الفرد على الاعتبار، ولكنه لا يتمتع بالنفوذ في المجتمع فالفرد من العوام يحصل على اعتبار كبير اذا ما زار (مكة) واصبح (حجي) او زار مرقد من مراقد الائمة واصبح (زاير) وكل هذه مسائل اعتبارية لا تختلق للفرد نفوذاً في المجتمع.[34]

خاتمة

لقد قرأت كتاب الجبايش بجزئيه الأول والثاني قراءة دقيقة ومتأنية وبعد هذا البحث تكون لديّ انطباع شخصي عن هذه الاطروحة وهو ان الدكتور سليم ينتمي الى المدرسة البريطانية التي تعتمد بالاساس على المنهج الوظيفي البنائي في وصفها وتحليلها للمجتمعات المدروسة، ونرى ان الدكتور سليم قد سلك وبشكل واضح هذا المنهج.

ولكن رغم ذلك ولكون دراسته هي أول دراسة انثروبولوجية في العراق كان يحتاج الى توكيد العلاقة البنائية الوظيفية لكي تظهر للقارئ المتخصص بشكل واضح .

---

[33] المصدر نفسه، ص 253.

[34] المصدر نغسه، ص459 .

يضاف الى ذلك أن الاستاذة المتخصصين في الانثروبولوجيا في العراق والذين لديهم تحصيلاً اكاديمياً لم يحللوا في دراسة منفصلة المنهج الذي اتبعه الدكتور سليم في دراسته للجبايش، لذلك فأن المهمة التي قمت بها في بحثي هذا اعتقد انها كانت مهمة صعبة وعسيرة وشاقة وتحتاج الى جهد وقت طويلين، فضلاً عن ان الفترة الزمنية الطويلة التي تفصل بين كتابة بحثي هذا وكتابة الدكتور سليم لأطروحته هي اكثر من نصف قرن، فمنطق الامس ليس كمنطق اليوم وهذا امرٌ معروف ومؤكد.

وفي هذا السياق أود الاشارة الى ان الدكتور معن خليل عمر في كتابه (رواد علم الاجتماع قد عرض وعارض في الوقت نفسه اطروحة الدكتور سليم في اتجاهات عديدة منها تقسيم الطبقات في الجبايش على اساس اقتصادي او اجتماعي او مهني وغيرها. كما يؤكد الدكتور معن ان الدكتور سليم (وظيفياً بالمعنى الانثروبولوجي) أي انه أحد تلاميذ المدرسة البنائية الوظيفية لكنه لم يستخدم هذا المنهج في دراسته للجبايش كما يدعي الدكتور معن.

وأرى من المناسب القول ان ما طرحه الدكتور معن في قضية عدم توظيف الدكتور سليم للبنائية الوظيفية للربط بين الانظمة الاجتماعية، لا يتلائم مع ما قدمه الدكتور سليم الذي نتفق معه في توظيف البنائية الوظيفية في دراسته للجبايش.

ونرى ان الدكتور سليم وصف وحلل مجتمع الجبايش وترك للقارئ او الباحث الاستنتاج. حيث انه ترك الواقع يعبر عن نفسه في دراسته هذه.

كما اعتقد ان الانتقادات التي وجهها الدكتور معن الى الدكتور سليم هي محض اراء شخصية نحترمها ونقدرها وله كل الحق في عرضها كما يراها فضلاً عن ان الدكتور معن انتقد الدراسة من منظور سوسيولوجي بوصفه سوسويولوجيا وليس انثروبولوجيا.

المصادر

1- إحسان محمد الحسن: رواد الفكر الاجتماعي ، جامعة بغداد ، 1991م.

2- أحمد أبو زيد :البناء الاجتماعي، مدخل لدراســـة المجتمع ج1 المفهومات، القاهرة: الدار الوطنية للطباعة والنشر ، 1965م.

3- إسماعيل قباري : قضايا علم الاجتماع المعاصر ، الاسكندرية: منشأة المعارف، 1976م.

4- إشيلي مونتاغو: البدائية ، ترجمة:محمود عصفور، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 53.

5- خالد الجابري: محاضــرات القاها على طلبة الدكتوراه ،كلية الاداب – جامعة بغداد ، قســم الاجتماع ، 2000م.

6- شاكر مصطفى سليم: الجبايش، ج1، بغداد: مطبعة الرابطة، 1956م.

7- شاكر مصطفى سليم: الجبايش ج2، بغداد: مطبعة الراية،1957م.

8- عبد الباســـط عبد المعطي:اتجاهات نظرية في علم الاجتماع ، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة، 1988م.

9- قيس النوري: مدارس الانثروبولوجيا، بغداد: بيت الحكمة، 1991م .

10- لوسـي مير: مقدمة في الانثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة: شـاكر مصـطفى سـليم، بغداد: دار الشـؤون الثقافية العامة.

11- محمد عاطف غيث: علم الاجتماع، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1990م .

12- محمد حسن غامري: المناهج الانثروبولوجيا، القاهرة، 1982م.

13- معن عمر: رواد علم الاجتماع في العراق ، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1990م.

14- نيقولا تيماشـــيف: نظرية علم الاجتماع وتطورها، ترجمة:محمود عودة وآخرون، القاهرة: دار المعارف، 1972م.